مرسلة مع الريح

فوق الصخرة

السوداء

«ورست بنا السفينة في مرفأ خيل إلينا أنّ ساكنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه . عيون تلمع كأنها الالماس تحت جباه لوحتها الشمس الحامية ، فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . أي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ »

ترنحت السفينة فوق سطح الماء ولطمها الهواء فتمايلت ، ثم استدارت شامخة بأنفها السحوق نحو السماء ، وأرسلت من جوفها ذلك العويل الطويل كأنما هي تودع اليابسة قبل أن يحتضنها اليمّ الواسع العميق ، واستقبلت مخرج ميناء « دوفر » لتنساب منه إلى المضيق الأزرق ، المترامي تحت قدميها ، فتمخر فيه باسم الله مجريها .

ومضت تبتعد عن الشاطىء شيئاً بعد شيء ، والشاطىء يغيب عنها هوناً على هوناً حتى بدا كأنه ضباب كثيف لا تستبين فيه من شيء ، الاّ ثغم المطرّحات من الأبنية ورءوس المداخن ترسل دخانها الأسود كأنما هي مجموعة من البراكين الثائرة ترسل من جوفها أفاعيل طبيعية غاضبة

ولمسنا الماء ، واكتنفنا الغسق ، وأخذت آلات السفينة تهدر تهدار البراكين ، تجالد اليمّ واليمّ يجالدها ، تبيح صدره بحيزومها وتضربه بذنبها الملوي كأنها أفعى تسترق الخطو في الظلام المسدل ، فيرد كيدها بأمواج كالجبال .

وبدت نجوم الليل ترسل بصيصها إلى ذلك العالم الأصمّ الذي كنا نجتازه ، وأخذت الشعرى تبرق وتكظم ، كالعادة اللعوب ، وبدا الفرقدان : وإذا شئت :

فاسأل الفرقدين عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار وأنارا لمدلج في سواد

وأكل الناس وشربوا ومرحوا وأخذ السكرى يلاعب معاقد أجفانهم ، بعد أن أنهكهم الرقص وفعل يوم الريح ، وحتى للريح متاعه ، هذا والسفينة لا تأخذها سنة ، والبحر يقظ يغالبها وتغالبه . وكيف ينام وهو ذلك الشيء الذي استيقظ مع الخليقة ولم تغف له عين ، ولا سكنت له حركة ، ولا اضطرب له قلب ، ولا اهتزّ له جنان . فكيف به يعبأ بتلك الذرّة من الهشيم ؟ انها تداعبه ولا ريب . هي ألهية من ألهياته ، بل خطرة من خطراته . كلاّ ، بل حلم مغيّب في جوف الزمن .

وما ذلك الصفّير الأجش الذي يضرب السفينة بنبراته السريعة القوية ، فتميل ذات اليمين وذات الشمال ؟ انه ولا شك عبارات الترحاب يرسلها البحر إلى الذين ينزلون رحابه الواسعة .

وما ذلك الذري البعيد الذي يكاد يفجر الصدور بعمقه ويخلع القلوب بروعته . تلك هي العاصفة : هي أغنية الأزل الأول .

* * *

كنا في منتصف يناير والهواء زمهرير والماء زبد يتهادى فوق قمم من الموج أشبه بالتلال المتلاحقة في صحراء شهباء ، سطع عليها قمر مريض الضوء باهت اللون . ولم يبق على ظهر السفينة انسان يحيي هذه الطبيعة الصاخبة الغضبى ، فقد لاذ كل منهم بمنجى منها ، ولكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه .

وابتدارت السفينة من حول شاطىء فرنسا الغربي وعمت نحو الجنوب وكلما أمعنت فيه انتعشت الأرواح ومرحت النفوس فقد استحال الهواء البارد المثلوج نسمات تخاطب القلب والعقل ، وأخذت ذكاء بأبهتها السماوية ، تحيينا كل صباح بأشعتها الذهبية ، وتودعنا كل مساء وهي منحدرة في جوف اليمّ الواسع مثيرة الينا بألسنة صفراء من نارها المتسعرة ، فكأنما هي في تحيتها ووداعها صديق من فقد الصديق ، في مثل عالمنا الذي كنا نقطع رحابه ، فوق ذات ألواح ودسر . . .

فلما كانت السفينة في نطاق دائرة الاستواء تغير لون الماء فاذا به أحمر قانٍ كأنه الدم المهراق في رقعة لا يحدها البصر . وكان الى جانبي عالم أخذ طريقه الى الجزء الجنوبي من كرة الارض ليبحث طبائع بعض الاحياء في وهاد افريقية وغاباتها الموحشة . فلما أبديت دهشتي من تلك الظاهرة قال لا تدهش فالماء هو الماء ، وانما اللون من حيوانات مجهرية تتكاثر ثم تتكاثر في بعض فصول السنة ، فتصبغ البحر بهذا اللون الاحمر الارجواني . ثم انظر ألا ترى أشياء تثب من الماء ثم تغوص . إذا اقتربت سفينتنا منها فسوف تطير . هذا هو الخطاف ، وهو جنس من السمك الطيار يتخذ من زعانفه أجنحة ، فاذا أزعجها مزعج هبت هاربة ، فتضرب بزعانفها الجانبية فترتفع فوق سطح الماء وتسير في الهواء مسافة . فاذا أخذ منها الروع ، وجدت من صدر البحر مثوى وئيداً واسع الجنبات . ثم ها هي ذي الصخرة السوداء .

***

أشرفنا عليها وهي قائمة في وسط اليم كأنها الحلم الفزع في خيال مضطرب . وقد استطالت قممها المشرفة على البحر وراحت تتطلع إلى سماء شملها الغيم الكثيف ، فكأنما هي امرأة مهجورة تناجي السماء بآلامها المرتسمة على صفحتها المربدة من ظلم الايام .

ودنت بنا السفينة في مرفأ خُيِّل الينا أن ما كنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه ، عيون تلمع كأنها الالماس تحت جباهٍ لوحتها الشمس الحامية فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . اي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ ولكن السفينة لا بد من أن تتزود ، فألقت مراسيها على الصخرة السوداء ، يوماً وليلة .

وحملنا حب الاستطلاع على النزول إلى البرّ ، وأخذنا نضرب في نواحي المدينة حتى ألفينا عصا النوى في مكان هو مجتمع الادلاء ، فقال أحدهم : أأدلكم على الكوخ الأثري ؟ قلنا وما هو ؟ قال كوخ فيه كتاب سطوره الحياة ، وسطور الحياة كلها مكتوبة على صفحة واحدة خطتها يد القدر . فسأله أحدنا أورقة تعني ؟ قال نعم .

ووقفنا أمام الكوخ الأثري فاذا به حظيرة بها جياد لحامية تلك الصخرة السوداء . رأينا الجياد . ولكن لم نر الكتاب ولا الصفحة التي خطتها يد القدر . قال لا تعجلوا ، فهنا في هذه الحجرة نزل ضيف جاء من وراء البحار ، وظل بها سنين ، فلما مات اتخذ الكوخ حظيرة للجياد .

ولكن هذه الحجرة قد تركت مغلقة احتراماً لذكرى ذلك الضيف . وأنتم ترون كيف

على بها . فتلك الحشائش النابتة من خلال الجدران ، ومن بين الشقوق التي تتخلّل الأرض، دليل على أن أصحاب الأمر هنا لم ينتهكوا حرمتها . وفي هذا القصر ورقة مكتوبة هي طلبتكم : وأحدنا ينظر في الورقة التي خطتها يد القدر .

« في تسعة الأيام الأخيرة من حياته ظلّ هادئاً وفي غيبوبة . كانت الحركة تؤلمه ، وحتى اللمس كان يؤذيه . وفي اليوم الخامس من مايو تلفظ ببعض كلمات غير مستبانة، ولكن رفيقه « مونتولون » ظن أنه يقول « فرنسا — الجيش — رأس الجيش » .

« وما إن تحرك لسانه بهذه الالفاظ حتى وثب من فراشه ثائراً وجذب معه « مونتولون » الذي حاول أن يثنيه إلى الرشد ، فانطرحا معاً على الأرض . كان ذلك آخر جهد بذلته إرادة لا تردّ وقوة لا تقهر » .

« وبعد صراع ، استطاع مونتولون أن يرجعه إلى الفراش مستعيناً بزميله « أوشير » . وظلّ الريض في فراشه ساكناً حتى كانت الساعة الحادية من المساء ، فنزل آخر أنفاسه . كانت عاصفة هوجاء ترسل بأهازيجها الصاخبة في خارج الكوخ ، الذي أخذ يهتز من شدتها كما لو كانت زلزالاً صارماً انتفضت منه الأرض . ها هي ذي العاصفة تقتلع شجرة الصفصاف التي كان يجلس اليها ذلك الخالد الفاني . وإذ كانت العاصفة تقتلع تلك الشجرة التي تفيأها الضيف الراحل، كان « مرشان » ، أحد رجاله ، يسجيه بالعباءة التي كان يلتفع بها ظاهر الجيوش في موقعة مارنجو » .

* * *

يا لك من صخرة سوداء ! أنت يا جزيرة القديسة هيلانة . ويا لك من رجل ! أنت يا ابن فرنسا ! أنت يا نابوليون !

* * *

فيره الآن في باريس ، وهو دو « البكري » إذ يقول :

« وقفت بقبر نابوليون أمس ، أحدث النفس ، بما في ذلك الرمس ، فإذا سكون بعد صولة ، وقبر في جوف دولة ، وصولجان كرته الأرض ، أضحى مخراق لاعب ، وسرير كان عليه البسط والقبض ، أمسى ملتقى ناع وناعب .